رسم القلب

أعرف لماذا ضاق صدري بتلك النّبتة التي تحدَّت وحدتي واقتحمت حياتي، وأعرف لماذا ساءت علاقتي بها إلى ذلك الحدّ المخجل. لا بدّ لي من أن أبرِّئ صديقي (حسني)، الذي أحضرها بمناسبة شفائي من مرضي، فأنا لم أكرهها بسبب ذلك الصّديق الذي تعاطف معي، وزارني في بيتي، مصطحبًا تلك النبتة، بلفافتها الشّفّافة.

صحيح أنّه هو الذي اختار لها ذلك المكان أسفل جدار الغرفة، ووضعها فيه بعد أن نزع عنها لفافة الورق والشَّبَر، وصحيح أنّه شرح لي بحرصه المعهود، وبما يشبه الإملاء، مهامّ رعايتها التي أتعبتني في ما بعد، إلا أنّه لم يكن سببًا في العداء الذي نما بيني وبين تلك النبتة بأوراقها التي تشبه رسم القلب.

في البداية لم أشعر بضرورة وجود علاقة حبّ أو بغض بيني وبينها، قد رأيت فيها مجرّد واحدة من موجودات الغرفة، مثل الكرسي، والطّاولة، والمِدْفأة، والخزانة، أو حتّى إطارات الصّور على الجدار.

غير أنّني بعد أيام، تنبّهتُ إلى ما يثيره صمتها من السّأَم في نفسي، ما الذي يجذبني إلى مجرد نبتة مُسَمَّرَة مثل التّماثيل النّحاسيّة أو البلاستيكيّة، تُحملقُ في سقف الغرفة القاتم، أو في الجدران المُصفرّة المُتقشِّرة، أو ربما في تقاطيع وجهي، ولا سيّما تلك الأخاديد المتقاطعة في جبهتي وفي خدي؟

إنّها نبتة مُتعِبَة ومُقْلِقة في آن معًا، وهي تحتاج إلى عناية يوميّة كي تنمو ببطنها السميك، كما أنها ترغمني كلّ صباح على إزاحة السّتائر كي ترى النّور أو يراها، وتجبرني على ريّها، وتنظيف أوراقها من الغبار، ثم تسميدها بين مدّة وأخرى، أجزم بأني كرهتها.

ما أثار غيظي، هو ما قرأته في إحدى الصّحف، من أنّ النباتات التي تعيش داخل البيوت تحتاج إلى من يبتسم لها أحيانًا؛ لأنها مخلوقات حسّاسة، كائنات حيّة تتلقّف الابتسامة، كما الضّوء الذي يبعث الحياة في عروقها.

هذا ما ينقصني، ثم إنّ الابتسام ليس من طبعي، فأنا لا أكاد أرخي شفتيّ أمام أكثر الأمور طرافة. (حسني) الذي جاء بها يعرف هذه الحقيقة، فكيف يمكنني الابتسام لمجرّد نبتة بليدة؟

أفضل حلّ هو أنْ أضعها خارج الغرفة، عند زاوية درج العمارة، لكن (حسني) أوصاني بألّا أنقلها من مكانها؛ لأنّ تغيير موقعها سيؤدّي إلى اضطرارها للتّكيّف مع المكان الجديد، وقد لا يناسبها، فتذبل وتموت.

خلال شهر آذار، انتعشت تلك النبتة، ونمت بما يوحي برغبتها في التخلّص من عيوب صمتها، ولكن هذا لم يوقف صراعي الصّامت معها، فهي على أيّة حال كائن يدهم حياتي، يخرق وحدتي، ويتدخّل في يومياتي، لماذا لا أتخلّص منها؟ ألا يمكن أن يكون (حسني) قد تآمر على حياتي بوضعها في غرفتي؟

حين اقتربتْ يدي من ساقها، تحسّستُ تلك السّاق، إنّها خشنة مع طراوتها، فكّرتُ: لنْ يستغرق الأمر أكثر من ثانية واحدة، أدير يدي، فأقصف السّاق، حركة واحدة وأرتاح منها.

قلّبت الفكرة في رأسي، فتوصّلت بسرعة إلى أنّني مقدم على ارتكاب فعلة تنتمي إلى سلسلة جرائم قتل النّفس، تراجعتُ، وتنهدتُ، وجلستُ على المقعد، ووضعت كفّي أسفل فكي محدّقًا بحيرة وقلق. في تلك اللحظة رأيتها تشرئبّ، وتولّدت لأوراقها عيون، عيون كثيرة أخذت تراقبني بحذر، فوجئت بشفتيّ تفترّان عن ابتسامة غير مفهومة، على الأقل بالنسبة لي.

راقبت نموّها السّريع كلّ يوم، كلّ ساعة، حتى كدْتُ أرى بعيني المجرّدة كيف تتفتّح أوراقها الجديدة، وكيف تتبسّط مثل كفٍّ آدمية، وحين أصحو في الصّباح، أتفقّد الأوراق والبراعم الجديدة، وكثيرًا ما سمعتُ صوتها، صوت الطّقطقة الخافتة للأوراق في أثناء تفتّحها في الصّباحات الباكرة. ولقد أيقظ ذلك الصّوت في أعماقي فرحًا طفوليًّا، وضبطتُ نفسي ذات مرة وأنا أبتسم لها.

وفي الأيام اللاحقة، نمت وتوالت لها أوراق جديدة، أوراق خضراء يانعة، وحين بلغت منتصف الجدار، دبّ الخلاف بيننا من جديد، فأنا أردتُ توجيهها نحو الباب كي تكسو يسار الجدار، أما هي فتوجّهتْ إلى غير ما أريد، نحو النافذة.

هدأَتْ نفسي، أمسكتُ رأسها، قلتُ كمن يخاطب امرأة: من هنا أيّتها العزيزة، ولويت

عُنُقها برفق ناحية الباب، ثم ربطته بخيط متَّصل بحافة ذلك الباب. وبعد أيّام، عاد رأسها يتوجّه نحو النافذة، فبدتْ كأنّما تنظر إلى الوراء.

صحيح أن المشهد أثار في نفسي أسًى مبهمًا، ولا سيّما حين قدّرت أنها أرادت بحركتها تلك لفت انتباهي وتذكيري بالتّفاهم الذي حصل بيننا، لكن، لماذا لا تستجيب لرغبتي؟ على الأقل إكرامًا لاهتمامي بها، ثم إنّ المساحة المتبقّية من الجدار حتى النافذة لا تستوعب نموّها وامتدادها، فهي ملأى بالصّور.

حاولتُ ليّ عُنُقها برفق وتصميم، لكنّها هذه المرّة بدت أكثر صلابة وإصرارًا على التوجّه نحو النافذة، وحين قست أصابعي عليها قليلًا، أحسسْتُ بعُنُقها ترتجف، أجل، لقد ارتجفت مرّتين.

من الصّعب أن أفهم أو أصدّق ما حدث، لكن تلك العُنُق ارتجفت بين أصابعي مثل سمكة حيّة، ازدَدْتُ إصرارًا على تنفيذ ما بدأتُه، وبينما أحاول ثنيها نحو الباب بإصرار، إذ بها تنكسر.

كان الصّوت الذي سمعته لحظتئذٍ أشبه بصوت كسر عظمة بشريّة، ودهمني شعور من ارتكب جرمًا في غفلة من النّاس، والسّائل الذي نزّ من مكان الكسر لطّخ يدي، أمّا رأسها فظلّ بين أصابعي، لم أدرِ ماذا أفعل به، تلفّتُّ حولي بذُعر، تراجعت قدماي نحو الوراء، رأيت في الأوراق عيونًا تتّهمني، وإذْ سقط الرأس من يدي، فتحتُ الباب، وغادرتُ البيت.

لم تمضِ سوى أيام قليلة حتى ذبلت أوراقها، حاولتُ إنقاذها، نظّفتُ مساماتها بقطعة من القماش المبلول، رويتها بحرص، فتحت السّتائر والنوافذ، لكن كانت أشبه بعزيز يريد الانسحاب من حياتي بصمت موجع.

رويدًا رويدًا اصفرّت أوراقها، كلّ يوم تصفرّ أوراق جديدة، ثم تجفّ وتسقط، لم يبقَ سوى أغصانها التي اسودّت، وبدت مثل أذرع سوداء لعنكبوت خرافي يتشبّث بجدار، ثمّ يسقط على الأرض فجأة في إحدى ليالي أيّار، فيعود الجدار مثلما كان، متقشّرًا مصفرًّا، وعاريًا، أما أنا فقد دهمتني رغبة جامحة، غير مفهومة برؤية ذلك الصّديق (حسني)، لماذا اشتقْتُ إليه حين سقط العنكبوت في سكون تلك الليلة من أيّار؟

(جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، بتصرّف).